استدعاء الشّخصيات الإسلامية في قصيدة" تقرير سرّي جدّا" لنزّار قبّاني

د/ عبد القادر بعداني. د/ إسماعيل زغودة

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف.

ملخص:

إن حاضرنا ومستقبلنا مرتبط بماضينا، وما فيه من أمجاد، لهذا أصبح الرمز وتوظيف الشخصيات التراثية سمة بارزة عند الشعراء، ومن بينهم شعر نزار قباني، وتشهد كتاباته الشعرية التي انتقد فيها الطغاة والفاسدين سياسيا واقتصاديا أنه كان عميق القراءة للتراث، ويجيد استغلال عناصره في النص مما يعطيه فضاء شعريا واسعا بالإشارات والدلالات.

استعمل الشاعر نزار قباني الرمز بمختلف أنواعه من تاريخي، ديني، شعبي، تراثي، وسنحاول في هذه الدراسة أن نضع يدي على أسباب استعمال الشاعر لتوظيف التراث في الصورة الشعرية وفي بناء القصيدة النّزارية.

الكلمات المفتاحية: نزار قباني، الشخصيات التراثية، الرمز.

Sommaire:

Notre présent et notre future dépendent de notre passé avec toutes ses gloires. Pour cela, le symbole et l'utilisation des fameux et anciens personnages sont devenu un caractère apparent chez les poètes. Et parmi eux Nezar Qabani que ces poèmes témoignent de la virulence de ces critiques envers les corrompus et les tyrans politiquement et économiquement, et qui prouve en outre sa lecture profonde du patrimoine, ce qui lui a permis d'exploiter ces éléments dans son texte pour rendre une atmosphère pleine de sens et de significations. Ce poète a su utiliser le symbole dans toute sa diversité que ce soit historique, ou religieux, ou populaire, ou même ancien.

Et nous allons à travers cette étude essayer de connaitre les raisons qui ont poussé ce poète à l'utilisation du patrimoine dans son image poétique et dans son œuvre artistique.

***Mots clés** : Nezar Qabani – personnages anciens – le symbole*

الشاعر نزار قباني الذي ارتبط اسمه بالمرأة من أكثر الشخصيات العربية دفاعا عن القضايا العربية وعن المظلومين والمضطهدين، وهو من أكثر الشعراء توظيفا للتراث ببعديه التاريخي والفكري، بهدف أداء دور أساسي في إنتاج الشاعرية سواء كانت الشخصيات تتشابه في موقفها مع الموقف الحاضر، أم كانت بينهما علاقة ندية، ليعبر بها عن رؤياه المعاصرة[1]. وذلك لأن حاضرنا ومستقبلنا مرتبط بماضينا، وما فيه من أمجاد، لهذا أصبح الرمز وتوظيف الشخصيات التراثية سمة بارزة في شعر نزار قباني، وهذه إشارة واضحة إلى أنه كان عميق القراءة للتراث، ويجيد استغلال عناصره في النص مما يعطيه فضاء شعريا واسعا بالإشارات والدلالات.

استعمل الشاعر نزار قباني الرمز بمختلف أنواعه من تاريخي، ديني، شعبي، تراثي وسنحاول في هذه الدراسة أن نضع يدي على أسباب استعمال الشاعر لتوظيف التراث في الصورة الشعرية وفي بناء القصيدة النزارية.

عمد نزار قباني لاستدعاء الشخصيات التراثية، وخاصة التاريخية، من أجل نقد الواقع المعاش، وهجاء أصحاب القرار لتردي أوضاعنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية.

تعتبر شخصية الصحابة أكثر شخصيات التراث انتشارا في شعر نزار قباني الثورية، وتعد شخصية أبي بكر الصديق وعمر وعثمان أكثر الشخصيات التاريخية الإسلامية دلالة على الشهامة العربية ولها تأثير خاص على الوجدان العربي.

استثمر الشاعر هذه الشخصيات الإسلامية ليسقط عليها دلالات سياسية، فشخصية أبي بكر وعثمان ترمزان إلى واقع العالم العربي الذي يتخبط في المحن والأحزان وتتساقط مدنه الواحدة تلو الأخرى، مثل القدس وبغداد في أيدي الأمريكان.

في هذه القصيدة نجد شخصية أبي بكر وعثمان غائبة في مجتمعنا الذي أصبح مسئولوه عبارة عن هياكل عظمية لا يمثلون شيئا ينفع المجتمع، يقول نزار قباني:

لم يبق فيهم لا أبو بكر.. ولا عثمان..

جميعهم هياكل عظمية في متحف الزمان..

تساقط الفرسان عن سروجهم..

وأعلنت دويلة الخصيان..

واعتقل المؤذنون في بيوتهم..

و أُلغي الأذان..

جميعهم تضخمت أثداؤهم..

وأصبحوا نسوان..

جميعهم يأتيهم الحيض، ومشغولون بالحمل

وبالرضاعة.[2]..

ويهجو مسئولي المجتمع العربي فيشبههم بالمرأة التي لا تقدر على قتال الأعداء ولا تستطيع الدفاع عن شرفها وكرامتها.

وأن رجالها ذبحوا خيولهم وباعوا سيوفهم وقدموا نساءهم هدية لقائد الرومان كرمز للخسة والنذالة . وأن الأرض العربية التي كانت تدعى بلاد الشام وقت العزة والكرامة، أصبحت اليوم تسمى: يهودستان وهو توظيف جيد فيه إبداع في صنع مفردات اللغة وتوظيفها، حيث مزج بين العربية والكردية ليولد لنا كلمة جديدة وهي يهودستان أي دولة اليهود.

ويرسم الشاعر لنا طريق الخلاص عن طريق العودة إلى إحياء عصر الفروسية وقوة السيف، ويرى في السيف والحصان الخلاص لنا مما نحن فيه" ما أخذ بالقوّة لا يستردّ إلاّ بالقوة".

ومن يمعن النظر في شعر نزار قباني يصل إلى أن النص الأدبي يشكّل المحور الأساسي في تضمينات الشاعر وأنه يأخذ من ديوان العرب تجاربهم وأفكارهم وأحاسيسهم على امتداد العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، وكذلك يأخذ من نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. من ذلك قوله حين قال منتقدا القادة العرب:

ملوكها يقرفصون فوق رقبة الشعوب بالوراثة

ويفقئون أعين الأطفال بالوراثة

ويكرهون الورق الأبيض, والمداد, والأقلام بالوراثة

وأول البنود في دستورها:

يقضي بأن تلغى غريزة الكلام في الإنسان

الله ... يا زمان[3]...

وفي هذا نقد واضح لسادة الأمة حين تخلّوا عن واجبهم وأتاحوا الفرصة لأراذل الناس كي يتحكّموا في رقاب المواطنين متضمنا في ذلك بيت المتنبي عندما غضب على سادة مصر بسماحهم للعبيد بقيادة الأحرار

قائلا:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها *** وقد بشمن فما تفنى العناقيد[4]

والثعالب هنا كل منافق مراوغ الذي انتفخ بطنه من نهب ثروات الأمة.

برع نزار قباني في توظيف الأنماط التعبيرية التراثية توظيفا يخدم الدلالة العامة المعبرة عن رؤيته الشعرية المعاصرة وعن فكره الرافض لواقع الأمة العربية المتهالك. فهو حين يعبر عن الضعف الذي أصابنا يلجأ إلى توظيف الرموز التراثية الدالة على القوة يقول:

لم يبق في دفاتر التاريخ

لا سيف ولا حصان

جميعهم قد تركوا نعالهم

وهرّبوا أموالهم

وخلّفوا وراءهم اطفالهم

وانسحبوا الى مقاهي الموت والنسيان

جميعهم تخنثوا...

تكحلوا...

تعطروا...

تمايلوا أغصان خيزران

حتى تظن خالدا ... سوزان

ومريما .. مروان

الله ... يا زمان[5]...

في هذه القصيدة نجد الشاعر يستعين بأبي بكر وعثمان لأنهما من الصحابة الأخيار ومن الخلفاء الراشدين الذين بنوا دولة العدل والمساواة، ووظفهما هنا في قصيدته بحثا عن الكرامة والحرية التي فقدها المجتمع العربي، ولاسترجاع السيادة العربية الضائعة.

ويلجأ الشاعر إلى رمز الآذان للتعبير عن الهوية والأرض، وأننا أمة لا تعادي التراث المخالف لديانتنا، المسيحي أو اليهودي، حيث يقول:

واعتقل المؤذنون في بيوتهم..

و أُلغي الأذان..

كما يلجأ إلى رمز الديك لدعوتنا لليقظة والتجديد والأخذ بأسباب القوة يقول:

والديك كي يصيح يحتاج إلى قرار

ويهجو المجتمع العربي فيشبهه بالمرأة التي لا تقدر بحسب تكوينها المخالف لتكوين الرجل، على قتال الأعداء والدفاع عن شرفها وكرامتها. وأن رجالها ذبحوا خيولهم وباعوا سيوفهم وقدموا نساءهم هدية لقائد الرومان كرمز للخسة والنذالة.

ويسافر بنا نزار عبر العصور والأزمان موظفا الشخصيات التاريخية ليبعث فينا الأمل وروح المقاومة، بفضل التمسك بالقيم العربية الإسلامية والتعاليم الدينية، ممثلا في دول الممانعة التي تتصدى للعدو صباح مساء، فيقول:

جميعهم موتى ... ولم يبق سوى لبنان

يلبس في كل صباح كفناً

ويشعل الجنوب إصراراً وعنفوان

جميعهم قد دخلوا جحورهم

واستمتعوا بالمسك, والنساء, والريحان

جميعهم مدجن, مروض, منافق, مزدوج .. جبان

ووحده لبنان

يصفع أمريكا بلا هوادة

ويشعل المياه والشطآن

في حين ألف حاكم مؤمرك

يأخذها بالصدر والأحضان

هل ممكن أن يعقد الإنسان صلحا دائما مع الهوان؟

الله ... يا زمان[6]..

وفي تعبيره عن سخطه لحكام العرب واضطهادهم للمواطن، يقدم نقدا لاذعا لكل الحكام وأنهم يمارسون القهر والإذلال لمواطنيهم، وفي المقابل الخضوع والإذعان لأبناء الرومان، يقول على لسان المواطن العربي:

هل تعرفون من أنا

مواطن يسكن في دولة (قمعستان(

وهذه الدولة ليست نكتة مصرية

او صورة منقولة عن كتب البديع والبيان

فأرض (قمعستان) جاء ذكرها

في معجم البلدان...

وأن من أهم صادراتها

حقائبا جلدية

مصنوعة من جسد الانسان

الله ... يا زمان[7]...

وقمعستان مركبة تركيبا إضافيا، بين كلمتين عربية وهي قمع وكردية وهي ستان، وتعني الكلمة دولة القمع، ويقصد بها دول العالم العربي مجتمعة. وكدلالة على قمة القمع والاضطهاد الذي وصلت إليه الدول العربية أنها تصدر حقائب جلدية مصنوعة من جسد الإنسان.

والشخصية التراثية في شعر نزار قباني تحتفظ بخصائصها ومميزاتها العربية الإسلامية، من عدل وشهامة وشجاعة ووفاء للعهود المنجزة، بخلاف الشخصية المعاصرة التي أصبحت تحمل بين طياتها تناقضات بين هذه الملامح، بين الظلم والعدل وبين طمس الهوية العربية والتضحية من أجل إثباتها. كل هذا عبّر عنه نزّار قبّاني حين ذكر رجالا من الصحابة ولم يجد اليوم من يشبههم أو يجد صفة من صفاتهم، عندما قال:

لم يبق في دفاتر التاريخ
لا سيف ولا حصان
جميعهم قد تركوا نعالهم
وهرّبوا أموالهم
وخلّفوا وراءهم أطفالهم
وانسحبوا الى مقاهي الموت والنسيان
جميعهم تخنثوا...
تكحلوا...
تعطروا...
تمايلوا أغصان خيزران
حتى تظن خالدا ... سوزان
ومريما .. مروان
الله ... يا زمان[8]...

وكتأثر الشعراء المعاصرين بالاتجاهات الغربية، تأثر نزار بمأساة الشخصيات المنبوذة التي ارتكبت أخطاء مع الله تعالى فحلت عليها اللعنة إلى يوم الدين، من ذلك توظيفه لشخصية الشيطان توظيفا مغايرا لما ذهب إليه أدباء الغرب حيث احتضنوا تمرد هذه الشخصيات كتعبير عن النزعة إلى الحرية، مثل ما صنع الشاعر الانجليزي ملتون في الفردوس المقدس .[9] بينما الشاعر نزار لا يتعاطف مع الشيطان، بل يعتبره مصدر الشر إذ يقول:

هل تعرفون الآن ما دولة (قمعستان)؟

تلك التي ألّفَهَا.. لحَّنها..

أخرجها الشيطان...

هل تعرفون هذه الدويلة العجيبة؟

حيث دخول المرء للمرحاض يحتاج إلى قرار

والشمس كي تطلع تحتاج إلى قرار

والديك كي يصيح يحتاج إلى قرار

ورغبة الزوجين في الإنجاب

تحتاج إلى قرار

وشعر من أحبها

يمنعه الشرطي أن يطير في الريح

بلا قرار[10]..

فهذا الشر بمختلف أنواعه الذي ارتكبه الحكام كله بإيعاز من الشيطان، من دكتاتورية ومنع للحريات العامة والشخصية.

فعالية التكرار عند نزار في تقرير سري جدا.

استعمل نزار التكرار في قصيدته "تقرير سري جدا" ليحقق إيقاعا موسيقيا ويصبح المقطع مفتوحا للتأويل والتطبيق في تشكيل موقفه وتصويره، ولإظهار حالته النفسية والشعورية ويمزج بين نفسه ونفسية المتلقي في جو بهيج.[11]كرر الحرف والعبارة والمقطع، فقد وظف تكرار الحرف بشكل واضح مما يعطينا دلالات نفسية كالانفعال والقلق والتوتر الذي يعيشه الشاعر، قصد تأكيد المعني عند المتلقي مما يضفي على النص لمسة جمالية تتناسب وحس الشاعر، كما أنها تحمل معاني ودلالات قوية. من ذلك قوله:

هل ممكن ان يعقد الانسان صلحا دائما مع الهوان؟

هل تعرفون من أنا

هل تطلبون نبذة صغيرة عن أرض (قمعستان

هل تعرفون من أنا؟

هل تعرفون الآن ما دولة (قمعستان)؟

هل تعرفون هذه الدويلة العجيبة؟

حيث كرر حرف الاستفهام" هل" ست مرات ليؤكد حضوره الدائم لهذا الوطن، وأنه يعيشه بكل آماله وأحلامه، وأنك حين تقرأ له تشعر بالحزن والأسى لما آلت إليه الأمة العربية من ظلم واستبداد، كما يقوم تكرار الحرف هنا بدور الرابط اللغوي الذي ولّد ترابطا في الجمل وتكوينها تكوينا بنيويا متماسكا في النسق داخل بنية النص الشعري[12].

تكرار الكلمة

يشكل تكرار الكلمة عند نزار قباني ظاهرة بارزة في شعره لتأكيد الذات وحضورها في بعض المقاطع التي تتطلب التكرار حين تكون النفس الشاعرية متأزمة وحزينة، وذلك لبعث الدلالة بإيقاع موسيقي جميل، والتكرار بنوعيه الاسم أو الفعل لابد أن يكون فنيا موقظا للمشاعر وقويا للمعنى ومؤكدا لها، يلجأ إليه الشاعر لبناء قصيدته ويكون محور ارتكاز القصيدة ومنبع ثقلها الفني وتكاملها الإيحائي، يقول:

جميعهم هياكل عظمية في متحف الزمان..

جميعهم تضخمت أثداؤهم..

جميعهم يأتيهم الحيض، ومشغولون بالحمل

جميعهم قد ذبحوا خيولهم..

جميعهم قد ذبحوا خيولهم..

جميعهم تخنثوا...

جميعهم تخنثوا...

جميعهم قد دخلوا جحورهم

جميعهم مدجن, مروض, منافق, مزدوج .. جبان

فالشاعر كرر هنا" جميعهم" تسع مرات إيمانا منه أن الكل مسئول عن تدهور حالة الأمة، ونلاحظ أنّ كلمة جميع المكررة لها تأثير كبير في الكشف عن خفايا الشاعر النفسية التي تتأجج نارا وحزنا وأسى على ما آل إليه العالم العربي، كما ولّدت نغما موسيقيا أساسيا ساهم في بناء النص الشعري. [13]

تكرار الجملة

تكرار الجملة أن يعيد الشاعر الجملة بطريقة فنية فيها إيحاء وفاعلية للتأثير على المتلقي، وفيها ربط للمقاطع الشعرية لتشكيل صورة كاملة لتقوية الدلالة، وعمق درجتها الإيحائية والإيقاعية في النص الشعري، وفيه قيمة جمالية رابطة تتمثل في تحقيق تماسك القصيدة وتلاحمها ونغمها الإيقاعي المنسجم [14]. من ذلك قوله:

هل تعرفون من أنا " في المقطع 4"

مواطن يسكن في دولة قمعستان

هل تعرفون من أنا" في المقطع 6"

مواطن يسكن في دولة قمعستان

جميعهم قد ذبحوا خيولهم..

جميعهم قد ذبحوا خيولهم..

جميعهم تخنثوا..." في المقطع 2"

تكحلوا...

تعطروا...

تمايلوا أغصان خيزران

جميعهم تخنثوا..." في المقطع 3"

يلبس في كل صباح كفناً

ويشعل الجنوب إصراراً وعنفوان

هم جميعهم قد ذبحوا خيولهم " في المقطع 01

وارتهنوا سيوفهم..

وقدموا نساءهم هدية لقائد الرومان..

"

جميعهم قد ذبحوا خيولهم" في المقطع 2"

وهرّبوا أموالهم

وخلّفوا وراءهم اطفالهم

وانسحبوا الى مقاهي الموت والنسيان

نخلص إلى أن شاعرنا يعود عند اشتداد المحن، إلى مبادئه وثورته على الظلم والفساد والدكتاتورية السياسية بكل ما يملك، لنصرة الحق والعدل، ويستحضر الشخصيات الإسلامية أبي بكر وعثمان، هذين الشخصيتين العظيمتين الرافضتين للعادات البالية والظلم والاضطهاد، فشخصية أبي بكر وعثمان دلالة على سعة اطلاع نزار وسعة خياله وصدره، وأنه لجأ إلى التراث ليخفف عن نفسه ما يعيشه مجتمعه من ظلم واستبداد.

المصادر والمراجع:

01- فنية التكرار عند شعراء الحداثة المعاصرين، عصام شرتح،

02- الإيقاع اللغوي في الشعر العربي الحديث، ترمانيني خلود

03- الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي، الجيار مدحت، 1995، دار المعارف مصر.

04- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، د علي عشري وليد، 1997، دار الفكر العربي القاهرة0

05- الديوان، المتنبي ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1983

06- الشعر العربي المعاصر، عز الدين إسماعيل، ط 3، دار الفكر العربي، القاهرة 1978،

07- https://www.aldiwan.net/poem6376.html

الإحالات:

[1]– ينظر: الشعر العربي المعاصر، عز الدين إسماعيل، ط 3، دار الفكر العربي، القاهرة 1978، ص: 225.

[2] – https://www.aldiwan.net/poem6376.html

[3] – https://www.aldiwan.net/poem6376.html

[4] – الديوان، المتنبي ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1983، ص: 507

[5] – https://www.aldiwan.net/poem6376.html

[6] – https://www.aldiwan.net/poem6376.html

[7] – https://www.aldiwan.net/poem6376.html

[8] – https://www.aldiwan.net/poem6376.html

[9]– استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، د علي عشري وليد، 1997، دار الفكر العربي القاهرة، ص: 98.

[10] – https://www.aldiwan.net/poem6376.html

[11] – ينظر: الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي، الجيار مدحت، 1995، دار المعارف مصر، ص: 47.

[12] – الإيقاع اللغوي في الشعر العربي الحديث، ترمانيني خلود، 2004، ص: 306.

[13] – ينظر: فنية التكرار عند شعراء الحداثة المعاصرين، عصام شرتح،

[14] – نفس المصدر